لأنك.... معي
قصص قصيرة جدا

الدكتور أحمد زياد محبك

لأنكِ...معي

قصص قصيرة جدًّا

دار شمأل ـ دمشق

٢٠٠٠

العنوان: لأنك معي
النوع: قصص قصيرة جدًّا
المؤلف: الدكتور أحمد زياد محبك
الهاتف: ٠٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢
البريد الرقمي: mohabek@gmail.com
الناشر: دار شمأل ـ دمشق
الطيعة الأول: ٢٠٠٠م

كلمات

لا وقتَ لديك لكي تقرأ، ولا وقت لديّ لكي أُكتب.
وكل الأشياء تمر بسرعة، كل الأشياء مفككة مبعثرة.
لا مشروع، ولا هدف، ولا خيط ينتظم الحياة
الأيام تتبعثر.
*
وكذلك، فلتكن هذه الكلمات

صديقتي

هي رحلة عمر
تشظَّت في كلمات
اقرئيها
أعيدي لحمتها
تنبعث فيها الحياة
وَتَرَيْ فيها مرآة.

حديث الناعورة

حدثت الناعورة نفسها مرة، فقالت:

إلى متى سأظل أدور؟ لا أفترُ ولا أهدأ؟ وأنا دائماً مبلولة بالماء؟ أغط فيه، وأدور حول محوري، أرفع الماء من أدنى إلى أعلى، وينسكب على حافاتي، وأبقى دائماً أدور وأدور؟ لقد مللت هذا الدوران، لقد سئمت هذا الماء، سأتوقف عن الدوران.

وتوقفت الناعورة عن الدوران، يوماً، يومين، ثلاثة. وإذا أذرعها الباسقة تنشف، وإذا أضلاعها الخشبية العريضة تجف، وأخذ الهواء يلفحها، والشمس تمتصُّ ما بقي فيها من رطوبة، ثم أخذت تتشقق، وبدأت أذرعها تتقلص، وأضلعها تطقطق يباساً، وأدركت أنها ستنفرط وتتهاوى لا محالة.

ولم تلبث، حتى عادت إلى الدوران، وعادت إليها الحياة.

في الداخل

كل شيء جميل، ألوان وظلال وأنغام وأشذاء الحياة جديرة أن تعاش.

وأفتح الباب وأخرج.

*

كنت داخل معرض لوحات فنية.

حسد

دخلت غرفة التصوير، بعد طول انتظار، تمدَّدت على السرير، قبالتي كان جهاز التصوير بالصدى.

وضع الطبيب اللاقط على بطني.

تنبهت إلى جهاز التصوير. على واجهته يتدلى شيء ما، لم أُكد أصدق، دققت فيه النظر.

كف صغيرة، بخمس أصابع، وفي وسط الكف عين زرقاء.

وأنا أغادر، كنت أتأمل الشهادات المعلقة على جدران غرفة الانتظار، وفي الخارج أعدت قراءة اللافتة وما عليها من أسماء الجامعات الأوربية التي تخرج فيها.

كيس السكاكر

طلب الولد من أبيه خمس ليرات، فسأله الأب:

- ولماذا خمس الليرات؟
- سأشتري بها مجلة
- ولماذا المجلة؟
- المعلم طلب منا أن نشتري كل شهر مجلة.
- ما شاء الله، وهل سنملأ بيتنا بالمجلات؟
- أرجوك يا أبي، لا تبخل على بخمس ليرات.
- أنا لا أبخل عليك يا ولدي.

ثم مدّ إليه يده بعشر ليرات، وهو يقول:

- خذ، هذه عشر ليرات بدلاً من خمس، اشتر بها ما تشاء من أكياس السكاكر والبطاطا، فهي أنفع لك، بماذا ستفيدك المجلة؟

موعظة

يا بـني، لا توقـف سـيارتك عـلى طـرف الرصـيف، فـيظن الناس بك الضعف، أوقفها في وسط الطريق، اقطع بها الشارع، اصنع أزمة في المرور، يرهبك الناس، ويتجنبوك.

يا بني، لا تقد سيارتك بلطـف ولا هـدوء ولا بـطء، قـدها بسرعة، ولو في شارع مزدحم، واجعل الجانب الأيسر من الطريق دائماً لك، لا تسمح لأحد بتجاوزك.

يا بني، عندما تنطلق بسيارتك مـن أمـام دارك فـانطلق بهـا بأسرع مما يتوقع، واجعل العجلات تسحج الإسفلت، وكـذلك عنـدما تصل، ليحس كل الجيران بوصولك إلى المـنزل أو مغادرتـك ولـيروك، وليكن لك ضجيجك المميز، يعرفك به الجميع.

يا بــني، اجعــل كل النــاس مــن مشــاة وركاب يرهبــون سـيارتك، لا أجمـل مـن أن تـرى النـاس مـن المشـاة وهم يتقـافزون ويركضـون أمامـك مثـل الأرانـب، ولا أجمـل مـن أن تـرى أصحـاب السيارات الأخرى وهم يرهبون من المرور بجوارك، أو محاولة تجاوزك.

يا بني، إن يكن في المدينة كلها سيارة واحدة، فلتكن هي سيارتك، وإن يكن في المدينة ألف سيارة، فلتكن سيارتك وحدها المعروفة من بين الألف.

على وشك السفر

مررت بكل الإجراءات من ملء بطاقة المغادرة وتفتيش الحقائب، والإجابة عن كل الأسئلة، وكان ذلك يسير ببطء شديد، استغرق مني ساعات، في زحام شديد من المسافرين، وأنا أكاد أختنق، والعرق يغسلني.

ولما خرجت إلى ساحة المطار، وتوجهت مع المسافرين إلى سلم الطائرة، وكادت البهجة تتسرب إلى نفسي.، إذا زوجتي توقظني من قيلولة صيف قائظ.

مجلدات

عند المنعطف التقينا، تبادلنا التحيات الحارّة، والسـؤال عـن الصحة والحال والعمل، منذ ربع قرن لم نلتق، رفيق الصبا، كنا كل يوم نلتقي، ولكن الأعمال والواجبات والمسـؤوليات كـثرت، فـإذا نحـن لا نلتقي.

سألني عن الحال، فأجبته:

- نلت الشهادة وتوظفت وتزوجت وأنجبت.

ثم افترقنا.

كنت أظن أني سأملأ عن حياتي مجلدات ومجلدات.

شعور مختلف

أزورهـا في مكتبهـا، فترحّـب بي، تـنهض لاسـتقبالي، تقعـد قبالتي، تقدّم لي القهوة، تعدّها بنفسها.

أرشف الحديث من عينيها، ولا أتردد في لمس أصابعها وأنا أتناول منها فنجان القهوة، أرتاح إلى دفء يدها، وأنا أصافحها مودّعاً.

تتكرر الزيارات، أودّ لو زرتها كل يوم.

ذات يوم تهمس لي:

- أنـت لا تعـرف سرّ ارتيـاحي إليـك، وجهـك، صـوتك، حديثك، كل شيء فيك، يشبه جدّي، رحمه الله.

الصديق

عشر سنوات، أو أكثر، وأنا أشتري من محله كل حاجات المنزل، لم يعد محض جار أو بائع، أصبح الأخ والصديق، لا أسأله عن السعر، ولا عن النوع، الثقة هي الأساس.

اليوم أقرأ في البيت على المعلبات تاريخها، فإذا هي لا تصلح، ورجعت إليه، أعاتبه، فردّ عليَّ لائماً:

- ما توقعت منك أن تردّها، أو تعاتبني، حسبتك صديقاً، يا للخسارة.

دهشت، سألته:

- إذا كنتُ صديقاً حقاً، كما تقول، فكيف تبيعني إياها.

ويردّ بكل هدوء:

- إذا لم أبعها لك، وأنت الصديق، فهل تريد مني بيعها للغريب؟

السفر الحق

وتنطلق بي الحافلة.

آه، لـو كان معي صـديق، مـا أوحـش السـفر، وحـدي، لا مؤنس، ولا صديق، خمـس سـاعات لا أعـرف كيـف سأمضـيها، مِـن المسافرين مَن ينام، وأنا مِن عادتي ألا يغمض لي جفن.

السفر الحق أن يكون معك صديق.

ويلتفــت إليّ الراكــب الذي بجــواري، يعــرّفني إلى نفســه، ويمضي، فيتحدث، والحديث دائماً ذو شجون، يتحدث، ويتحدث، وأنا ملتفت إليه أصغي.

لدى مغادرتنا الحافلة أحسّ بفقرات رقبتي تؤلمني، روحي تكاد تختنق، لم يغمض لي جفن طوال الطريق، كم أتمنى لو أني غفوت قليلاً، لم أشعر بمتعة السفر، كم أتمنى لو كنت وحدي.

الخلاص

خرج إلى عمله في الصباح، فرأى أمام باب الدار قطة ميتة، استاء منها، دفعها بقدمه، تساقطت على الدرج، دفعها ثانية، قذفها بقوة، استقرت أمام باب الدار في الطابق الرابع، تركها، وتابع نزوله على الدرج، مطمئناً إلى تخلُّصه منها.

خرج الجار في الطابق الرابع، فدفع القطة الميتة بقدمه، تساقطت أمامه على الدرج، أخذ يدفعها بقدمه، حتى استقرت أمام باب الدار في الطابق الثالث، فتركها، وتابع نزوله على الدرج، مطمئناً إلى تخلصه منها.

وبالطريقة نفسها استقرت القطة الميتة أمام باب الدار في الطابق الثالث، ثم الأول، ثم الأرضي.

خرج الجار في الطابق الأرضي، رأى القطة الميتة، دفعها بقدمه، رمى بها في قبو العمارة.

في المساء، كان جميع سكان العمارة يتذمرون من انتشار رائحة كريهة، وكانوا يتساءلون عن مصدرها، ولا أحد منهم لديه جواب.

من هي؟

مدّ يده إلى الرف ليأخذ علبة التبغ، وإذا جرس الهاتف يرن، رمقه بنظرة اشمئزاز، وهو يغمغم بضجر:

- هذه هي أنتِ، ما من أحد غيرك.

ناولني علبة التبغ، ثم رفع السماعة، وأخذ يردّ بجفاء وتذمّر:

- نعم، ماذا أردت؟ هل من طلب جديد؟ لا، لست متفرغاً لك.

ثم وضع سماعة الهاتف بنزق، وهو يتناول مني قطعة النقد. سألته:

- لا شك أنها إحدى الصبايا المزعجات اللواتي..

قاطعني، وهو يردّ إليّ بقية النقود:

- ليتها كذلك، لو كانت واحدة منهن لما رددتُ عليها بهذه الطريقة، هي، وما من أحد غيرها، هي زوجتي.

للجميع

إلى الصديق فوّاز حجو

تاج ذهبي مرصع بالجواهر، على حامل من معدن داخل قفص زجاجي، في متحف، يراه عامة الشعب.

بالأمس كان على رأس الملك، ولا أحد منهم يراه.

بعض الدعاء

في ساعات الرضا كانت أمي تدعو لي قائلة:

- تمسك بالتراب، فيصبح في يدك مثل الذهب.

وفي ساعات الغضب كانت تدعو، فتقول:

- الليرة تصير مثل فرس، وأنت تركض وراءها.

*

لســت أدري لمــاذا يســتجاب بعــض الدعــاء، وبعضــه لا يستجاب.

تكـرار

كان أبي يقول لي:

- اصبر، غداً أشتري لك.

ثم يقول لي:

- اصبر، بعد غد.

ثم يقول:

- يا ولدي، يجب أن تعرف، نحن فقـراء، ولـيس معـي، ولا يمكنني.

ثم ينفجر غاضباً، وهو يقول:

- كفّ عني، لا تطلب مني بعد اليوم أي شي.

واليوم أجدني أكرر لولدي كلام أبي.

الضمير

قال لي:

- هو صديقك منذ عشرين عاماً، وأكثر، وأنت تتعامل معه، ولا تشتري إلا من محلِّه، وأنت نفسك دللتني عليه، ونحن كلانا نشتري بضاعتنا من محلّه، فأرجو أن تتدخل لتحلّ لي هذه المشكلة، أرجو أن تخاطب فيه ضميره ووجدانه.

واتصلت به بالهاتف، وحاورته طويلاً.

فردّ علي قائلاً:

- أنا، ضميري، ولله الحمد، حيّ دائماً، ويقظ، أنا، طول عمري ما غششت أحداً، أنت تعرفني منذ ثلاثين عاماً وأنت تشتري بضاعتك من محلّي، أنا ما غششتك يوماً، وأنت نفسك دللته على محلّي، وأنا أعامله كما أعاملك، ولكن، ماذا أفعل أنا، إذا كان غشيماً.

قلت له:

- ولكن البضاعة رديئة، ولا يمكن أن تباع في محله، وإلا فسوف يخسر كل زبائنه، أو يرمي البضاعة.

وردّ:

- الذَّنْبُ ذَنْبُه، هو، ليس ذنبي أنا، على كل حال، أنا أقبل بإعادة البضاعة كلها إليّ، ولكن سيخسر نصف ثمنها، هذا من أجلك أنت، ومن أجل الوجدان والضمير.

خـواء

في الشارع الواصل بين موقـف الحـافلة وبيتـه، لم يـر سـوى شبح رجل، لعله المتسول الذي يأوي دائماً إلى ظلال الدكاكين، بل إنه هو، يعرفه بمعطفه الطويل.

لمـاذا المحـلات كلهـا مغلقـة؟ وهي لا تغلـق في العـادة قبـل العاشرة؟ ماذا حصل؟ هل حلَّ وباء في البلد؟ هل أُعلنت الحرب؟

ليس ثمة حركة، ولا سيارة، ولا رجل، كأنه في العالم وحده.

دخل البيت، كانت العادة أن يسرع الأولاد إلى لقائه، ولكن أحداً لم يفعل.

ثمة لغط وضجيج وصراخ في غرفة الجلـوس، كلهـم في غرفـة الجلوس.

ودخل، وإذا الجميع أمام التلفزيون، يتابعون مباراة بكرة القدم.

لوحة

أولادي وزوجتي وأنا على ناصية الرصيف، نحاول عبور الشارع، سيارات وسيارات وسيارات، الشارع يكاد يخلو، ونهمّ بالعبور، وإذا سيارة مسرعة، ونرتد إلى الرصيف خائبين، لا معبر، لا نفق، لا جسر، لا إشارة مرور، ولا شرطي مرور.

سيارة تقف فجأة، السائق يشير بيده من وراء المقود، أن تفضلوا بعبور الشارع آمنين، يمدّ يده من نافذة السيارة، يشير إلى السيارات القادمة وراءه، يطلب منها التمهل والوقوف.

تعبر زوجتي، وهي تقود الأولاد، أعبر في إثرها، ألتفت إلى السائق أحييه، أتنبه إلى السيارة، وإذا هي تحمل لوحة أجنبية.

مثلي

أستيقظ مغضباً.

أجمل مزهرية في بيتنا وقعت على الأرض وانكسرت، أوقعتها القطة.

وأحمل العصا، أجري في إثرها، وأنا ألعن وأشتم.

وتعترضني زوجتي:

- أرجوك، اتركها، انظر، إنها حامل مثلي.

فيض من السرور

في الطريق إلى البيت، وعلى ناصية الرصيف عثرت على ليرة، ملت إليها، حملتها، مضيت بها، وأنا في غاية السرور.

بعد أن خطوت بضع خطوات، شيء ما أوحى إليّ أن هناك ليرات أخرى، رجعت، كانت هناك بضع ليرات، فازداد سروري، التقطتها واحدة واحدة، سروري يزداد، والليرات تزداد في يدي.

وأصحو، وإذا أنا في الفراش.

صداقة

الصديق الأوحد والأقرب والأصدق والوفي،
بعد وفاتي،
تزوّج أرملتي.

صانع الأحداث

دخلت المقهى، فدهشت، كأنني أراه أول مرة.

هو وراء طاولة، وأمامه فنجان قهوة، وبين يديه جريدة، مثله مثل سائر الرواد.

اقتربت منه، حييته، فدعاني إلى الجلوس، سحبت كرسياً، وجلست أمامه، حدّقت فيه، ثم سألته:

- هل عجزت، فتقاعدت؟

ردّ بجدّة؟

- لا.

وأرسل زفرة، ثم أضاف:

- منذ أكثر من خمسين عاماً منذ أن كنت طفلاً في العاشرة، كنت أطوف بين الرواد، أوزّع الصحف والمجلات، أصنع الأحداث، الحدث الذي لا أعلن عنه يموت، ينطفىء، كأنه لم يقع، مهما كان كبيراً، والحدث التافه، أجعله حدث الساعة، جريمة قتل، حادث سرقة، إعلان عن مسابقة، زيادة رواتب هكذا كنت أنادي، كنت أرى

نفسي صانع الأحداث، ثم فجأة اكتشفت، بعد هذا العمر، أنني محض مروِّج، بائع جرائد.

الزبون الأول

وأخيراً قررت شراء فروجة مشوية.

من بائع إلى بائع تنقلت، تأملت الأنواع والأسعار وأسلوب العرض وطريقة البيع، وأخذت أضرب أخماساً في أسداس.

فروجة واحدة قد تكفي لغداء واحد، قد تكفينا نحن الستة، أنا وزوجتي وأولادنا الأربعة، هي في الواقع لا تكفي، نحتاج إلى فروجة ونصف الفروجة، ولكن لو اشتريتها نيئة، وطبخت زوجتي بمرقها الأرز، لكفتنا جميعاً، وليومين اثنين.

ولكن منذ ثلاثة أشهر، أو أكثر، وابنتي الصغرى تلحّ عليّ، كل يوم، أبي، متى ستشتري لنا فروجة مشوية؟ لا أعرف أين رأيتها؟ وكيف؟

على كل حال، لقد اتخذت قراري، وأشير إلى البائع:

- أعطني هذه الفروجة.

ويفتح البائع باب الشواية، يرفع السيخ من موضعه، وأسمع بوق سيارة تقف إلى جانب الرصيف ويسرع البائع إلى الشاب القابع

وراء المقود، يرحب به، والسيخ في يده، فيشير الشاب، وهو ما يزال وراء المقود، إلى الفروجة التي كنت قد أشرت إليها، فيرد البائع:

- كما تأمر.

ثم يرجع البائع إلى موضعه أمام الشواية، يسحب الفروجة من موضعها من السيخ يلفها بورق خاص، يضعها في الكيس، ويعود إلى الشاب، يناوله الكيس، وهو يحييه.

البائع يرجع إليّ ليقول لي:

- معذرة، هذا زبون دائم، هو الزبون الأول، أنت لا تعرف، هو يشتري كل يوم فروجة، وليتك تعرف لمن، لا لنفسه، ولا لأمه، ولا لأبيه، كل يوم يشتري فروجة مشوية لقطته الوحيدة.

اختناق

ضجيج السيارات يعلو، أصوات أبواقها المتنافرة تتراكب، تتراكم، تتزاحم، تصخب، تجعر في زعيق يحزّ في العروق.

سيارات قادمة من شوارع فرعية، سيارات تركب فوق الرصيف، سيارات وسيارات وسيارات.

السائقون والركاب يتذمرون، يسألون، يعلقون:

- هو حادث مروّع.

- سيارة انفجرت عجلتها.

- سيارة نفد وقودها.

- حادث بسيط، سيارة صدمت سيارة، لا خسائر.

وتنطلق سيارة كانت قد وقفت في عرض الطريق كان سائقها قد تركها ونزل، وها هو ذا يعود إليها بعد أن اشترى علبة سكائر.

الزوار

في كل عيد، في كل مناسبة، في كل فرصة، كنت أزوره، فأجد الزوار يملؤون الغرفة، لا أجد لنفسي موضعاً، فأقعد قريباً من الباب، ولا أطيل المكث، وأنهض، أودّعه، فيودّعني، وكأنه لم يلحظ وجودي من قبل في زحمة الزوار.

واليوم، ما أزال، في كل عيد، في كل مناسبة، في كل فرصة، أزوره، فلا أجد أحداً عنده، وأهمّ بالنهوض، فيستبقيني، وهو يقول:

- إيه، كان بيتي لا يخلو من الزوار، يوم كنت المدير.

الليرة.. وصحن البلّور

ناولتني أمي صحناً بلوريّاً وليرة، وهي تقول:

- عجّل إلى السوق، لتشتريَ الفول.

وقبل أن أمضي، قالت:

- ولكن انتبه، لا تكسر الصحن، ولا تضيِّع الليرة.

وأنا أغادر الغرفة، كان صوتها يلاحقني:

- لا تكسر الصحن، ولا تضيِّع الليرة.

وأنا أهبط على الدرج كانت تحذِّرني:

- انتبه إلى الصحن، لا تكسره، وإلى الليرة، لا تضيِّعها.

وأنا أعبر فناء الدار، كانت تطل عليّ من أعلى الدرج، وهي تصيح:

- لا تضيِّع الليرة، ولا تكسر الصحن.

وأنا أفتح باب الدار، كان صوتها يعلو محذراً:

- لا تضيِّع الليرة، ولا تكسر الصحن.

وأنا أخرج إلى الزقاق، وقبل أن أغلق الباب ورائي، كان صوتها يلاحقني محذِّراً:

- لا تكسر الصحن، ولا تضيِّع الليرة.

بعد قليل رجعت إلى البيت، يدايَ تلوحان في الهواء، لا أحمل شيئاً، لا الصحن، ولا الليرة.

السلام

أخرج مع أبي، وأنا صغير، فنعبر الزقاق، في الحي العتيق، ونمرّ بالحارة، فأرى أبي يسلّم على هذا وذاك، ويردّ تحية هذا وذاك، فأدهش، وأقول في نفسي: كم يعرف أبي من الناس؟ وكم من الناس يعرفون أبي؟ ثم أقول: غداً، عندما أكبر، سوف أصير مثله.

واليوم، بعد عشرين عاماً من السكن في الحي الجديد، وقد بلغت الخمسين أهبط على درج العمارة، وأخرج من المدخل، وأمر بالشارع وأنا أرى جاري هذا، ويراني جاري ذاك، فلا أسلّم على أحد، ولا أحد يسلّم عليّ، ولا أرى أحداً منهم يسلّم على أحد.

لا يعرف

لديه الرغبة كل الرغبة
لديه الإرادة
لديه العزم
لديه التصميم
لديه الفراغ والوقت الطويل
لديه مئات الأفكار
لديه عشرات المشاريع
لكن، ثمة شيء ما ينقصه
يحسّ به، يعانيه، ولا يعرف ما هو
لذلك، لا يفعل أي شيء.

المقصّ

كل يوم يلتقيان، في صيف في خريف في شتاء في ربيع، كل يوم، صباح مساء، يلتقيان، تخضرُّ من حولهما الحقول، تورق الأشجار، تبسم الأزاهير، ترفّ الفراشات، تتناغم العطور والألحان، في يديهما، المتعانقتين يتحد النبض، في عيونها يتحد الصمت.

سنبقى معاً طوال العمر، سنموت ويبقى حبنا أبد الدهر، يهمس لها بأجمل من كل ما باح به جميل والمجنون وعنترة ونزار، تمنحه أبهى من كل ما منحت بثينة وليلى وهند وبلقيس ونوال.

وعلى الخطوة الجريئة يتفقان، على الخطوة الأخيرة يقدمان، أمه تقول، أمها تقول، يتكلم أبوها، وأخواتها، ويتكلم أبوه، تتكاثر الأقوال، يثرثر الجيران.

وإذا بشفرتي المقصّ تلتقيان.

الهديـة

أمام واجهة لمحل الأبواب وقفا، كل منهما يتـوكأ عـلى الآخـر، وقد كلَّت منهما الأبصار، وانحنت الظهور.

ويخرج إليهما البائع، يرحب بهما، يـدعوهما إلى الدخـل، يطمع في بيعهما دمية أو دميتين، لأولادهما، أو ربما لأحفادهما، وهـو الذي لم يبع منذ يومين أي دمية.

بعد هنيهة يخرجان، يحمل كل منهما دمية، وقد أبى البائع أخذ الثمن، بعد أن علم أنهما مثله لم يرزقا بولد.

زيارة

أدخل البيت حاملاً حقيبتي المدرسـية، فأذهـل، تمـلأ كيـاني كله بوجودها.

- هذه رجاء، ابنة خالتك، هي في السنة الأولى من الجامعة، تعال، ستعطيك درساً في اللغة.

هكذا تقول لي أمي.

خالتي متزوجة في دمشق، كثيراً ما تأتي إلى حلب، وتزورنا، دائماً تتحدث عن دمشق وبيتها وزوجها وأولادها، ولكن لم أكن أعلم أن لديها بنتاً بمثل هذا الجمال.

أصافح رجاء، أحس بدفء يدها ونعومتها، أقعد إلى جوارها، أبسط الكتاب بيني وبينها، يغمرني دفؤها وشذاها.

أنا في الصف الأول الإعدادي، وهي في السـنة الأولى مـن الجامعة في قسم اللغة الإنكليزية.

سأنال الشهادة الثانوية، وأسافر إلى دمشق، سأعيش هناك، في دمشق الجميلة، وسأدرس اللغة الإنكليزية.

رجاء أكبر مني، أنا أعرف، ولكن سأتزوج فتاة مثلها، تشبهها.

*

دمشق، ورجاء، واللغة الإنكليزية، اليوم، بعد نصف قرن، محض حلم.

محاولة

طوال فترة الامتحان ورئيس القاعة يراقبه، صبّ جلّ اهتمامه عليه، لاحظ أنه لا يكتب شيئاً.

في ربع الساعة الأخيرة بدأ يكتب بسرعة، يكتب ويكتب، ثم نهض، حمل دفتر الامتحان، وبيده الأخرى وضع ورقة الأسئلة على المنضدة أمام زميلة كانت أمامه.

غضب، ناداه، نادى الطالبة، أخذ منهما دفتريهما، وورقة الأسئلة التي وضعها الطالب أمام زميلته، نظر فيها بغضب، قلبها، نظر في الوجه الثاني منها، تملاّها طويلاً، قرأها، انفرجت أساريره، ابتسم، ردّ الورقة إلى الطالبة، وتمتم، كأنه يعتذر، ثم تركهما يغادران القاعة.

تقدّم منه أحد المراقبين، سأله:

- لماذا لم تعاقبه؟

أجابه:

- كتب على ورقة الأسئلة لزميلته قصيدة حب.

الدرجات

الدرجات تنثال من تحتي، تنداح، تتراجع، وأنا أحلّق فوقها، أطير.

أقفز، أتجاوز ثلاث درجات، أربعاً، أحلّق فوقها، وأدفع بقدميَّ الهواء، وأقفز ثانية، فوق أربع درجات أخرى، وأقفز، أقفز من غير أن أحط على الدرج.

لا، ليس حلماً، هو واقع، رأيت ذلك من قبل في الحلم عدة مرات، ولكنني الآن لا أحلم، لا، ليس حلماً، هو واقع، هأنذا أقفز، أقفز، وأحلق.

وأستيقظ

كان حلماً أيضاً.

عرفته

قرع الباب بهدوء، ثم دخل عليّ في المكتب، شاحب الوجه، ناحل البدن، شعره مسرّح بعناية، حليق الذقن، عيناه غائرتان، كتفه اليمنى مائلة قليلاً، سترته قديمة جداً، ولكنها نظيفة، في الجيب الأيسر منها عند الصدر قلم.

قبل أن ينطق بكلمة، سألته:

- هل أنت معلِّم ؟

أجابني:

- نعم

عاشا معاً

لم يعرفا الخصام، لم يعرفا العتاب، لم يعرفا أعباء الحياة، لم يعرفا أقوال الناس، لم يتحوّل حبهما، لم يتغير، عاشا معاً أجمل حياة.

*

لقد تحطمت بهما الطائرة، وهما عائدان من شهر العسل.

هـديـة

كتابي الذي أهديته إلى صديقي، وجدته بعـد مـدة معروضـاً للبيع على الرصيف بين الكتب القديمة، وعليه إهدائي وتوقيعي.

دعوة مفاجئة

رنَّ جرس الهاتف، فرفعت السماعة، فإذا أخي يدعوني إلى العشاء.

سررت كثيراً بالدعوة، وحثثت زوجتي والأولاد على الإسراع.

وقالت زوجتي معاتبة:

- منذ سنين ما دعانا، وبعد ذلك: ما سرّ هذه الدعوة المفاجئة؟ ولماذا هي الآن، وفوراً، وعلى العشاء؟

أجبتها:

- هو أخي، هيا، ولا ضرورة للنقاش.

ويذهل الأولاد أمام المائدة العامرة بأصناف الطعام الموضوعة في أطباق صغيرة كثيرة.

وتميل على زوجتي، وهي إلى جانب، وتهمس:

- كرم مفاجئ، لا بدّ أن في الأمر سرّاً.

وتصمت هنيهة، ثم تضيف:

- ولماذا الطعام كله في أطباق صغيرة؟

وبينما نحن ما نزال أمام المائدة، وإذا سناء ابنة أخي الصغيرة تدخل حاملة ساعة يد، وهي تخاطب أباها قائلة:

- بابا، بابا، انظر، زوجة المدير، بعد تناولها الغداء عندنا مع زوجها، نسيت ساعة يدها على المغسلة.

تعريف

أدخل عليه، وإذا بصديق خارج من مكتبه، فيلتفت إليه، ليقول معرّفاً بي:

- الدكتور صديقي، أوصيك به.

وأمدّ إليه يدي بالورقة، فينهض، فيتناولها مني، ويضعها على المكتب، أمامه، وهو يقول:

- أهلاً، أهلاً، أهلاً بالدكتور، تفضل، خمس دقائق فقط، أمامي كتاب مستعجل عليّ أن أعدّه، خمس دقائق فقط، وأوقع على معاملتك، لن أؤخرك، أبداً، تفضل.

بعد هنيهة يرفع رأسه عن الكتاب، يلتفت إليّ، والبهجة تغمر وجهه:

- دكتور، أودّ أن أشكو إليك ألماً في المعدة، عجز الأطباء عن علاجه أكثر من عشرين دكتوراً، عسى أن يكون شفائي على يدك.

أبتسم، ثم أردّ بهدوء:

- الحقيقة، أنا دكتور في الأدب العربي.

تتغضن ملامح وجهه، يكتئب، تغيض البهجة، يعلو وجهه توتر، يرفع ورقتي، يضعها بعيداً على طرف الطاولة، فوق أكداس من الأوراق، يتكلم، وهو مُكِبٌّ على الأوراق التي أمامه:

- للأسف، الكتاب الذي بين يدي عويص، لن أنتهي من تحريره قبل نهاية الدوام، لا أظن أني سوف أستطيع التوقيع على معاملتك، أنا آسف يا دكتور، وغداً سآخذ إجازة، وبعد غد يوم عطلة.

لا شيء

على الرصيف يسيران معاً، يفضي كل منهما إلى الآخر بما في نفسه، كأنهما جناحا طائر، منذ عشرين عاماً، بل منذ ثلاثين، يلتقيان، يتحدثان، عن كل شيء، هما صديقا عمر.

وعلى الرصيف أمامهما يلمحان معاً حافظة نقود، يمسك بها الأول، يجذبها الثاني، هي لي، بل هي لي، أنا رأيتها، بل أنا.

يشدها الأول، يشدّها الثاني، تتمزّق، تنقسم إلى قسمين، ولا يسقط منها على الأرض شيء.

أصداء صوت

إلى الدكتور محمد بهجت قبيسي

أشرقت الدنيا، وتألق الفجر الجميل، وداعبت شعاعات الشمس الذهبية وجه الأرض، وتفتحت الأعين الهدباء الناعسة، على ابتسامة حالمة، وسرى الدفء في الكون، وذاب الطل، وزقزقت العصافير، وهام النحل، ورفّ الفراش عندما سرت في الأكوان أصداء صوت فيروز.

الشقاء

نافذة الغرفة مطلة على البركة، والعريشة تتألق في الفِناء الرحب، والزجاج متألق نظيف، والستارة الشفافة مزاحة قليلاً، والخابية تمتلئ برشح ماء بارد، والأرائك مغطاة بملاءات بيضاء نظيفة.

كل شيء هادئ مريح، كأني في الجنان.

ويفتح باب الغرفة، تدخل جدتي بوجهها الوضاء، تمدّ إليّ يدها، تدعوني إليها.

وأستيقظ، وأنا أحسّ بضيق شديد في الصدر.

أوقظ زوجتي، تحضر لي كأس ماء، أقصّ عليها الحلم، ثم أقول:

- هي جدتي، جاءت، من عالم الموتى، لتأخذني إليها.

وتجيب:

- لا، اطمئن، ما يزال أمامك قدر كبير من الشقاء.

سيكارة

لم يبق سوى نصف ساعة، وتصل الحافلة إلى البلد، ويشعل أحد الركاب سيكارته، ويلتفت إليه السائق ليقول:

- أطفئ سيكارتك

ويردّ الراكب:

- ما عدت أطيق، أكاد أجن من غير سيكارة

- ولكن التدخين ممنوع داخل الحافلة

- افعل ما تشاء، فلن أطفئها

- هل أوقف الحافلة لتنزل فتدخن؟

ويرد الراكب:

- نعم

ويهدّئ السائق من سرعة الحافلة، يأخذ أقصى- اليمين من الطريق، ثم يوقف الحافلة.

وينزل الراكب، يسحب الدخان من سيكارته، ينفثه، وعيون أربعين راكباً ترقبه، وتنتظر.

بعد الخمسين

كم أكره الأوراق الرسمية والأختام والتوقيعات، وقِّع هنا، راجع الموظف هناك، عد غداً، عد بعد غد، توقيعات، توقيعات. لعلي ملأت أوراقاً بثقلي، لعلي سكبت مداداً بقدر دمي.

والآن ألتقيـك، وراء مكتبـك، وبيـدك القـلم، تـرحبين بي، تضعين الخاتم على أوراقي، وتوقعين، كالعسل.

أتمنى لو عدت، فبدأت حياتي من جديد، لأقدم كل أوراقي بين يديك.

هل لي أن أراجعك كل يوم؟

إقبال شديد

من وراء الشباك ألمح أرتال الصبايا وهنّ يتوافدن على المركز الثقافي، أحسّ بالبهجة تملؤني.

مدير المركز يكرر عبارات الترحيب، وهو يحدّثني عن قلة الرواد، ويعتذر إليّ، ويرجوني ألا أفاجأ إذا وجدت عدد الحاضرين قليلاً.

ثم ننهض معاً، بعد ارتشاف القهوة في مكتبه، نتوجّه إلى المحاضرة.

وعند الباب، يهمس لي:

- رواد المركز دائماً قلّة، لذلك نرجو المعذرة، فقد رأينا أن تكون المحاضرة في القاعة، وليس في المدرج.

وأنظر إليه مدهوشاً، وأنا ما أزال أرى من وراء الشباك أرتال الصبايا وهن يتوافدن على المركز، ثم أسأله:

- ولكن، أرى..

ويقاطعني، قائلاً:

- هؤلاء جئن إلى دورة خاصة بتصفيف الشعر.

لصّ

أَحَسَّ بحركة في غرفة الجلوس، وهو الذي لم يكد يغفو، سحب من تحت الوسادة مسدسه، ونزل من السرير.

همست زوجته:

- ماذا؟

فأجابها هامساً:

- في البيت لص.

ومشى هادئاً، تبعته زوجته، اقترب من غرفة الجلوس، ثمة حركة، وضوء باهت، دفع الباب، اقتحم الغرفة، وإذا ابنته الشابة، وبيدها جاز التحكم، تبحث في المحطات الفضائية عن قناة (...).

غياب

التقيته مصادفة بعد سنوات من الغيبة، غيبته هو عن الوطن. عانقته، ضمتني فرحة، سنوات العمر التي عشناها معاً كلها أشرقت لتغمرني بالنور والدفء والحياة.

سألني، ويدي ما تزال في يده، أصافحه:

- منذ شهر وأنا أبحث عن ثريا فخمة، هل تعرف بائع ثريات؟

أجبته:

- الباعة في كل مكان.

- أريد بائعاً موثوقاً.

ثم سألني عن بائع مفروشات، بضع دقائق مرت، وهو ما يزال يسألني عن صائغ ذهب، أو تاجر بناء، أو صرّاف نقود، أو صاحب معمل، أو مدير شركة، فهو يريد أن يبيع ويشتري ويشارك الناس، وكانت إجاباتي كلها بالاعتذار والأسف.

ثم قلت له مؤكداً:

- لا يمكنني أن أعرف أحداً من أولئك، فأنا كما تعرف مجرد موظف بسيط.

تجاهل كلامي، وعلّق باشمئزاز:

-كل شيء تغير، صار من الصعب أن تجد من تثق به.

ثم أرخى يده عن يدي ومضى، من غير أن يسألني عن صحتي أو عملي أو الأولاد، ومن غير أن يخبرني متى رجع من الغربة، وماذا يعمل، بل من غير أن يتيح لي إمكان سؤاله عن شيء من ذلك.

بعد أن مضى، تذكرت أنه غاب عن الوطن أكثر من خمس سنوات.

كراهية

كنت أصادفه داخلاً إلى البناء أو خارجاً منه، هو جار قديم، شاحب الوجه، نحيل، تلتقي أنظارنا بعضها ببعض، ثم ترتد.

كرهته، ازداد كرهي له، تمنيت موته.

لا أعرفه، لا أعرف اسمه، لا أعرف عمله، أجهل كل شيء عنه.

أمس كنت في موقف الحافلة أنتظر، التفتُّ، فإذا هو إلى جانبي، تبادلنا التحية، تحدثنا قليلاً، جاءت الحافلة التي ينتظرها، اعتذر إليّ، ودعني، ومضى.

شعرت أني بدأت أحبه.

صباح مختلف

أمي تكنّس فناء الدار، وأنا أملأ سطلاً من البركة، وأدفقه على الأرض أمامها، وهي ما تفتأ تقول لي:

- لا تشغل نفسك بمساعدتي، اذهب واكتب وظائفك.

وقرع الباب، وإذا الجارات يتدفقن عليها.

- سمعنا صوت المكنسة والماء، فجئنا نساعدك.

- بل جئنا لنشرب فنجان قهوة.

- بل جئنا لنتناول الفطور عندك.

وترحب أمي بهن، ثم تقول:

- ولكن لا بُدَّ من المساعدة أولاً.

ويخلعن المعاطف، يرمين المناديل عن الرؤوس، وترفع كل منهن ذيل ثوبها، تعلقه بخصرها، ثم يبدأن بغرف الماء من البركة بالسطول والقدور والصحون.

وما هي إلا برهة، حتى يعلو لغطهن، وإذا هن يتراشقن بالماء، حتى تبتلَّ منهن الثياب، وتلتصق بالأجساد.

وأمي ما تفتأ تقول لي:

- هيا، اذهب واكتب وظائفك.

ثم يسطع في الجواء عبق المامونية، ورائحة الجبن الساخن.

*

كان صباحاً مختلفاً لطالب في الصف الأول الإعدادي، نسيت فيه واجباتي ومدرستي.

لا طعم لها

يوم دخنت أول سيكارة قلت لنفسي:

- لا معنى لها، ولا طعم، ولا فائدة

وإلى اليوم، وبعد ثلاثين عاماً، ما زال كلما دخنت سـيكارة، ردّدت الكلام نفسه.

وما أزال أدخن.

سؤال محرج

استقبلتني في مكتبها، وأكدت لي أنها تدير المدرسة منذ نحو خمسة عشر عاماً، وفق المنهج نفسه، من غير تغيير، ثم أضافت أنها طوال تلك المدة كانت لا تتعاقد، إلا مع صديقاتها من المدرِّسات اللواتي يتفقن معها في منهجها التربوي، ولا يختلفن معها في شيء، وهو منهج يتلخص في الحزم والصرامة والثبات والاتساق الداخلي، كما قالت.

وقد أكدت أن منهجها ذاك هو الذي يضمن تخريج طلاب ذوي كفاءة عالية، وسوية نفسية واحدة، يستطيع الفرد من خلاله التفاهم مع الآخرين من غير أدنى اختلاف، لأن منهجها التربوي الموحد يكفل إلغاء كل الفوارق.

التفتّ إليها وسألتها:

- هل أنت متزوجة؟

نظرت إليّ مدهوشة، وكانت في نحو الخمسين، ثم قالت:

- نعم، ومنذ عشرين عاماً.

سألتها:

- كم طفلاً عندك؟

أطرقت، ثم أجابت:

- لم أرزق بولد، أنا...

اعتذرت لسؤالي المحرج، ثم ودعتها، وخرجت.

أسباب كثيرة

فجأة يسألني أحد أولادي:
- بابا، لماذا لا تظهر في التلفزيون، مثل هؤلاء.
يدهشني السؤال، أصمت
يتكلم أحد الأولاد مجيباً:
- لأن بابا ما عنده قميص أبيض مثلهم، ولا ربطة عنق.
ويتكلم آخر:
- لا، لأن هؤلاء ليسوا أصدقاء بابا، أنا أعرف كل أصدقائه.

من حسن الحظ

زوجتي تدفع العربة وعماد، طفلنا السادس فيها نائم، منى وأمل تتراكضان أمامنا وتعدوان. أمجد يسير بجواري، هدى وسناء تسيران بجوار أمهما.

نسمات ربيعية ندية تمنحنا رعشة ناعمة، والحديقة تتألق بالخضرة الزاهية، والرواد يملؤون المقاعد، ناعمين بدفء الشمس.

أضع يدي على يد زوجتي، وهي تدفع العربة، وأهمس:

- انظري إلى تلك السيدة الجالسة وحدها هناك.

وأصمت هنيهة، ثم أقول:

- تقدمت إلى خطبتها قبلك، ولكن... يبدو أنها حتى الآن لم تتزوج.

وتعلِّق زوجتي:

- هذا من حسن حظها هي.

السكوت

التقيته بعد غيبة عشر سنوات عن الوطن، أو أكثر، ذهلت.

شاب شعر رأسه، وتساقط أكثره، وتألّقت صلعته، وغارت عيناه، وتعمقت خطوط وأحافير في الجبين، وتهدّل لحم العنق، والحاجبان، حتى الحاجبان شابا.

هممت بأن أقول له: كم تغيرت، ولكن ذكرت نفسي، فسكتّ.

يدها

- ١ –

أحضن يدها، أسير لصقها، أهمس لها:

- داري صغيرة، ولكن غداً نشتري داراً واسعة، وننجب ولداً، أو ولدين، وسنشتري بالطبع سيارة.

- ٢ –

أحسّ بثقل يدها، وهي تتأبط ذراعي، أقول لها:

- أصبح عندنا خمسة أولاد، ودارنا هي هي، ولكن يمكن أن نصبر، أولادنا ما زالوا صغاراً، لعلنا نشتري داراً أخرى أكبر.

- ٣ –

أتوكأ على ذراعها، وأنا أجرّ خطاي الثقيلة، وأقول:

- كبر الأولاد، وغداً يتزوجون، ونبقى، أنت وأنا وحدنا، فتصبح هذه الدار الصغيرة كبيرة علينا نحن الاثنين.

- ٤ –

أنابيب التغذية في ذراعي، وأنا راقد على السرير في المشفى، آخذ يدها بين يديّ، وأهمس لها:

- سامحيني، لم أخدعك، ولكن الظروف، ظلمتك، وظلمتني.

وردة

همت بقطف وردة من الحديقة، فقال لي أبي:

- لا، لا تقطفها، يا ولدي.

فسألته:

- ولماذا يا أبي؟ هل تخاف من الحارس؟

فأجابني:

- لا يا ولدي، إذا قطفت الزهرة فلن يراها أحد غيرك، وستموت بعد ساعة بين يديك، ولكن إذا تركتها على الغصن، فسوف تعيش أكثر، وسيرها ناس كثير.

السمن والتاجر

قلت لأمي:

- أشتهي أن آكل مثلما أطعمني أمس ابن خالتي.

وسألتني:

- وماذا أطعمك؟

- الخبز المدهون بالسمن والمرشوش فوقه السكر الأبيض الناعم، وعليه القرفة.

أطرقتْ قليلاً، صمتتْ، حارتْ، ترددتْ، ثم قالت:

- سأطعمك مثلما أطعمك، بل أطيب.

ثم أحضرت رغيف خبز أسمر، شقته، فتحته، رشته بالماء، رشت فوقه قليلاً من السكر الأحمر الخشن، وقليلاً من القرفة ثم ناولتنيه، وهي تقول:

- خذ، هذا أطيب.

سألتها:

- ولكن، أين السمن؟

أجابت:

- ليس عندنا سمن.
- ولم لا يكون عندنا سمن؟
- لأن والدك فقير، يا ولدي.
- وخالي؟ هل هو غني؟
- نعم، يا ولدي.
- ولماذا لا يكون أبي مثله؟
- لأنَّ والدك معلم مدرسة.
- وخالي؟
- خالك تاجر.
هممت بسؤال آخر، فقالت:
- كفاني أسئلة، تناول طعامك.
وقضمت من الرغيف قضمة، فوجدته حقيقة أشهى وأطيب.

بطاقة

إلى وداد من رياض[1]
كيف ضيعتك في زحمة أيامي الطويله؟
لم أحل الثوب عن نهديك في ليلة صيف مقمره.
كيف ضيّعتُك؟ آهٍ يا جميله.
إنه ذنبي لن أغفره.
كيف لم أحبِبْك؟ يا لهفة ما بعد الأوان.
في فؤاد لم تكوني فيه إلا جذوة في مجمره.

[1] وداد ورياض بطلا رواية "الكوبرا تصنع العسل"، للمؤلف، والمقطع مقتبس من قصيدة للشاعر بدر شاكر السياب.

جارة

جارتي هي، تسكن لصقي، بل كأنها تسكنني.

دعتني إلى اللعب، وأنا طفل، فلعبت.

ثم دعتني إلى الطعام والشراب، فطعمت وشربت.

ثم دعتني إلى الوصال، ففعلت.

ثم دعتني إلى اللهو المجون فلهوت ومجنت.

ثم مرضت، فصدَّت عني، لم تطرق بابي، كأنها غادرتني ثم عادت إليَّ.

دعتني إلى التوبة، فتبت.

دعتني إلى الصلاة والصوم، فصليت وصمت.

دعتني إلى التأمل، فتأملت.

ثم دعتني إلى اللهو ثانية، رغبت، حِرْت، تردَّدت، سألتها: ما الذي تريدينه مني؟

فأجابت: بل ما الذي تريده أنت مني؟

وفجأة رحلت عني، فارقتني.

فتركت الحيّ، ورحلت.

سؤال

يقول لي، وهو يسأل، متحيّراً:

حتى الآن لا أعرف ما السرّ؟ ولدي وفّرت له كل شيء؛ عنده غرفة خاصة به، وعنده حاسوب، وأساتذة مختصون، في الرياضيات والعلوم والفيزياء والكيمياء واللغة العربية، وهو عضو في ثلاثة نوادٍ، حتى سيارتي المرسيدس تركتها له، وأبقيت لنفسي سيارة البيجو، ومصروفه اليومي وحده أكثر من راتب أستاذ، ماذا أفعل أكثر من ذلك؟ حتى إني وعدته بإجازة شهر يمضيها على الشاطئ مع أصحابه، ومع ذلك لم يحصل على مجموع في الشهادة الثانوية يؤهله للدخول إلى معهد متوسط، قل لي ماذا أفعل؟

ويصمت، ثم يضيف:

والذي يحيرني أكثر هو أخي، داره ثلاث غرف، وعنده سبعة أولاد، وأنا أعرف أنه ربما كان لا يملك ثمن العشاء، ومع ذلك ينجح ابنه في الشهادة الثانوية، ويحصل على مجموع يؤهله لدخول كلية الطب؟

ما تفسير ذلك؟

ويبقى السؤال، عنده من غير جواب.

قول وقول

كان يقول عنه:

- هو رجل عصامي، بنى نفسه بنفسه، جادّ، صبور على العمل، مخلص، لا يقبل وساطة، صادق مستقيم.

واليوم سمعته يقول عنه:

- هو رجل فقير، وضيع الأصل، لا أحد له يعينه، مثل الحمار، يعمل ليل نهار، ولا يحصّل شيئاً، عنيد، مغرور، لا صديق له، ولا صاحب.

شاب ناجح

أمام الخطيبة ووالديها وإخوتها ولفيف من أفراد الأسرة أخذ الشاب المتقدم إلى الخطبة يقول:

- الحمد لله، أنا مرتاحٌ جداً في عملي، الوظيفة بالنسبة إليّ مثل البقرة الحلوب، أذهب إلى المديرية في الثامنة والربع، أوقِّع في دفتر الدوام، ثم أخرج إلى المحل، أبيع وأشتري، في الثانية والربع أمرّ بالمديرية، أوقع في الدفتر ثم أخرج مثل باقي الموظفين.

والمحل، لا تسألوني عن المحل، المحل مملوء بكل ما هو مطلوب، ولكن لا أحد يستطيع أن يكلمني في شيء، لأن شريكي في المحل هو المدير نفسه، وهو أكثر من شريك، هو صديق، بل أخ حقيقي، ما من مهمة خارجية أو عمل إضافي أو لجنة إلا كنت أنا فيها الأول، تعويضاتي من الوظيفة ضعف راتبي، طبعاً أنا لا أبخل عليه بالهدايا.

ويصمت هنيهة، ثم يضيف:

- غداً أوظِّف خطيبتي سكرتيرة عنده.

ويميل والد الخطيبة على والدتها ليسألها هامساً:

- ما رأيك.

فتجيب:

- شاب ناجح.

*

وتظل البنت صامتة

- خبّرني، هل وقَّع على المعاملة؟

- أمس، في نهاية الدوام، دخلت عليه بنفسي، ووضعتها أمامه على المكتب.

- أخشى أن يعتبرها نوعاً من الوساطة.

- لا، لا، اطمئن، معاملتك قانونية وطبيعية، الأمر يتعلق فقط بالتعجيل بالتوقيع.

- أنا أشكرك.

- لا شكر على واجب، ولكن خطرت لي فكرة؛ ما رأيك في زيارته الآن؟

- أخشى أن يسيء فهم الزيارة.

- لا، لا اطمئن.

- إذن، هيا.

- ولكن عندي أيضاً فكرة، ما رأيك بهدية متواضعة نأخذها معنا؟

- أنت فاجأتني، ماذا يمكن أن نشتري له؟

- آه، الحق معك، هات أعطني منك خمسة آلاف ليرة، وأنا أضع فوقها ألفين، وغداً أعطيه إياها في ظرف، أو أشتري له بها هدية متواضعة.

انفجار

خبط بيده على التلفاز، فلم يشتغل، خبط عليه ثانية، ضربه بقبضة يده، فلم يشتغل.

شتمه، ثم قال:

- بليد، كسول، عنيد، مثلي تماماً عندما كنت صغيراً، لا أكتب الوظيفة إلا بعد أن يضربني الأستاذ، ولا أذهب إلى العمل إلا بعد أن يرفسني أبي.

ووجّه إلى التلفاز رفسة.

ولكن قبل أن يمسه بقدمه، كان التلفاز قد قفز، انفجر، وتناثر على الأرض.

اللقاء

أبوه ممدد على السير، الغرفة تغصّ بروائح الأدوية، الموت يتربص به عند كل نفس.

يحس بالضيق

وفي الخارج، أمام النافذة

يلتقي الممرضة الحسناء.

وأنا أدفع لصاحب المحل ثمن البضاعة، تقدّم مني متسوّل مقطوع اليد، يسألني العون، فمددت إليه يدي بعشر ليرات، فإذا بصاحب المحل يسبقني، فيبعد يدي، ويضع في يد المتسول ليرة واحدة، ويصرفه، ثم يلتفت إليّ قائلاً:

- مثل هذا المتسول كثير، اعذرني، أنا لا أريد أن أعوّدهم على التسول من زبائني داخل محلي، حتى لا يطمعوا، وأنا شخصياً لا أبخل عليهم، الحمد لله، الرزق كثير، ما من مرة نهرت أحداً منهم، أو رددت خائباً، المولى عز وجل يقول: وأما السائل فلا تنهر، أنا أعطي كل واحد منهم ليرة، نحن هنا في السوق سبعون تاجراً، إذا مرّ علينا هذا المتسول وحده في الصباح مرة، وفي المساء مرة، وأخذ في كل مرة من كل تاجر ليرة واحدة، فهذا يعني أنه سيأخذ من هذا السوق وحده في اليوم مئة وأربعين ليرة.

وصمت هنيهة، ثم أضاف:

- هل تعرف كم سوقاً يطوف هذا المتسول وحده؟ وهل تعرف كم متسولاً في هذا السوق؟ هؤلاء يشكلون حركة أكبر من

حركتنا نحن التجار، وإذا قلت لك فلن تصدق، أستطيع أن أحسب لك دخل هذا المتسول وحده بالآلة الحاسبة، أنا لا أحسده، ولكن هذا هو الواقع، هذا المتسول دخله في اليوم أكثر من دخل هذا المحل، فهل تصدّق؟

الشـذى

تسألني:

- ما الذي يحمي الوردة؟

فأجيبها:

- أشواكها.

وتردّ:

- بل شذاها.

زيارة قصيرة

زار أخاه بصحبة زوجته وأولاده الثلاثة، وهو الذي لم يزره منذ أشهر عديدة.

احتوت الأسرتين غرفة الجلوس، الأخوين والزوجتين والأولاد، عيون الجميع مشدودة إلى صدر الغرفة، حيث جهاز التلفزيون، والأخ، صاحب البيت، بيده جهاز التحكم، وهو بين لحظة وأخرى، ينتقل من محطة إلى محطة.

أحياناً يتحدث الأخ صاحب البيت عن تكاليف الطبق الفضائي، أحياناً تتحدث زوجته عن عدد المحطات التي يستقبلها.

ساعة مرت، مرت ساعتان، والعيون شاخصة.

وراء الباب وقف الأخوان، الأخ صاحب البيت يمد يده إلى أخيه مودعاً، وفي يده الأخرى جهاز التحكم.

" زيارتك لنا قصيرة، حتى إننا لم نتحدث عن أحوالنا، كيف أنت؟ وكيف عملك؟!"

" أنا بخير، وقد اطمأننت إلى أنكم بخير أيضاً، يكفي أن الطبق الفضائي قد صار فوق سطح داركم".

وتقول زوجة الأخ لسلفتها:

" أتمنى أن تزورينا مع زوجك والأولاد، كما زرناكم"

وترد:

" نحن لا نخرج من البيت، الطبق الفضائي ملأ حياتنا، وأخذ منا كل شيء".

الريح

ثمة ازدحام في وسط الشارع، والناس يتجمهرون ملتفين حول شيء ما.

أقترب منهم، أدخل في الزحام، أدفعهم، فإذا أنا أمام أسطوانة غاز، والناس يلتفون حولها في حلقة، ويشير أحدهم إليّ أنها على وشك الانفجار، ويبدأ الناس بالتراجع، وتتسع من حولها الحلقة وأتراجع أنا مع الناس.

ويدوي الصوت، وأنهض من الفراش، وإذا باب الغرفة قد صفعته الريح، وأغلقته بقسوة.

الحقيقة

تسألني:

- قرأت قصصك كلها، ولكن أين أنا؟ لم أجد اسمي؟ لم أنظر صورتي؟ لم أر أي شيء مني؟

وأجيبها:

- وهل أعرف أين أنا من قصصي؟ اعذريني إن قلت إني لم أبح حتى الآن بشيء عني، لذلك سيظلمني بعد موتي فني.

فتقول:

- بل، سأنصفك أنا.

ازدحام

في حديقة الحيوان رأيت ازدحاماً شديداً، فذهبت أستطلع، فرأيت الناس مزدحمين حول قفص فيه قِرَدة تتقافز.

ذكرت الغزال.

قلَّة هم الذين كانوا يتأملونه.

حوار

أقصد أخي في محلّه التجاري، أطلب منه قرضاً، فيسألني:

- ولماذا ؟

وأردّ:

- بصراحة، ادّخرت مبلغاً، وأود شراء غسالة آلية لزوجتي.

فيضحك عالياً، ثم يتكلم:

- ولماذا الغسّالة الآلية، وعندها غسّالة عادية، هل نسيت أمك، رحمها الله، كيف كانت تغسل الثياب بيدها، هل هي أحسن من أمك؟ وبعد ذلك، لا تنس، الغسّالة الآلية ستكلفك أضعاف ما تكلفك الغسالة العادية، فهي تستهلك مزيداً من الماء والكهرباء ومواد التنظيف.

وأهم بالكلام، فيقاطعني:

- لا بأس، افترض أنني أقرضتك الآن هذا المبلغ، فكيف ستردّه إليّ؟ ومتى؟

وأهم بالكلام، فيسبقني إلى القول:

- أنت معلم، وراتبك لا يكاد يكفي، وطبيعة وظيفتك ليس فيها مجال لا للسرقة ولا الرشوة، فكيف ستردّ إلي هذا المبلغ؟

جهل

لست أدري ماذا يفعلون في الفندق؟ هل يملؤون الخزان؟ أم هل الخزان مثقوب؟ هل الصنبور في الغرفة المجاورة معطوب؟ الصوت يتضخم، يطغى، يخيل إليّ، في هدأة الليل، شلالاً يهدر في دمي، أسدّ أذني كلتيهما، أرفع اللحاف فوق رأسي.

مع انبلاج الصبح أحسّ أنني قد غفوت قليلاً، أنهض، لا أذكر ماذا رأيت من كوابيس، الصوت ما يزال.

أنزل من السرير، أمضي إلى الحمام، أرى خيط ماء يسيل من الصنبور، أشدّ عليه المغلاق، فينقطع.

آه، لقد عرفت، لم أحكم إغلاق الصنبور، قبل أن آوي إلى الفراش.

هل يصدّقني؟

كان ذلك قبل ثلاثين عاماً، وكنت في الخامسة عشرة، وإلى اليوم ما أزال ألعن تلك الساعة.

كنا ثلة من الصحب، قال أحدهم:

- الحياة تجريب.

وقال آخر:

- يجب أن نجرّب كل شيء.

وقال ثالث:

- التجريب هو المعرفة.

وقال رابع:

- يجب أن نجرّب كل شيء بأنفسنا.

ثم أدركت، بعد أن جربت، ودفعت الثمن، أن المعرفة خبرة متوارثة، ومتراكمة عبر الأجيال، وليس من الضروري أن يجرب المرء كل شيء بنفسه، فالمُجَرّب لا يُجَرّب.

وها أنذا أقول اليوم هذا الكلام لولدي، فهل يصدقني؟

مثال

التقيته أول عملي في المديرية، وكنت آنئذ في مطلع الشباب، جميع الموظفين من حولي أصحاب بطون ممتدة إلى أمام، وذقون لا تُحلق سوى مرتين في الأسبوع، وأجسام ترهلت، وأمزجة متقلبة، وثياب ترجع إلى عهد نوح، وهم بعد ذلك متراخون في أعمالهم، كسالى، دائماً يتذمرون ويشكون، يروون قصصاً عن مشكلاتهم في البيت مع الزوجة والأولاد، بالإضافة إلى قصصهم عن مشكلات العمل.

إلا هو. في الخمسين، أنيق، حليق الذقن، مرجّل الشعر، كل يوم في بزّة جديدة، وحذاء لامع، لا يتأخر عن عمله، يتقيد بالمواعيد بدقة، يكبّ على عمله منذ دخوله إلى المديرية إلى خروجه منها، يدخن تبغاً فاخراً، لا ينتقل بين بيته ومقرّ عمله إلا في سيارة أجرة، وهو ممشوق القامة، ضامر البطن، ولا ترهُّلَ في جسمه.

أعجبني مظهره، وقررت جعله مثالاً يحتذى، إذ رأيت فيه خير من يعطي للمجتمع والحياة.

ولكني علمت بعد ذلك أنه عانس.

ليس ولدي

قال المشتري لولد البائع:

- أعطني، يا ولدي، كيساً من الأكياس المعلقة هناك، لأضع فيه هذه الحاجات.

خاطب البائع ولده قائلاً:

- أعط كيساً لعمك يا ولد، وخذ منه خمس ليرات ثمنه.

دهش المشتري، وقال:

- الآن دفعت لك ثلاثة آلاف وخمسمئة ليرة ثمن هذه الحاجات، فهل تبخل عليّ بكيس ثمنه خمس ليرات؟

ردّ لبائع:

- هذه الأكياس ليست لي، هي لهذا الولد الأجير، وَضَعَها هنا في المحل، كي يرتزق.

سأل المشتري مدهوشاً:

- أهو أجيرك أم ولدك؟

وتكلم البائع وهو يولي المشتري ظهره:

- بل هو أجيري.

وبعد خروج المشتري، التفت البائع إلى ولده، وقال له:

- في مرة قادمة لا تحرجني، تكلّم أنت، وقل للمشتري: أنا هنا أجير، وتعلّم كيف تسحب منه عشر ليرات، لا خمس ليرات، هل فهمت؟

الحطيئة

طرقَ الباب، فجفلت بناتي، إذ ما أَلِفْنَ أن يزورنا أحد، وأسرعت زوجتي ترفع كؤوس الشاي وصحن الزيتون وبقايا الخبز. فقلت لها:

- اتركي كلَّ شيء على ما هو عليه، فلْيَرَ ضيفنا فقرنا، خيرٌ من أن يرى بخلنا.

وفتحت الباب، وإذا بأعرابي يسلِّم، ثم يقول:

- أنا الحطيئة.

فدعوته إلى الدخول، فذهل لما رأى الحجرة والطعام والأولاد، فبادر إلى السؤال:

- لماذا رمى بك عمر مع أولادك في قعر هذه البئر؟

- ما هذه ببئر، يا أخا العرب، إنما هي داري، اشتريتها بالتقسيط، أفنيت من عمري خمسة عشر عاماً في سداد ثمنها.

فسألني:

- ولماذا لا تبيع النوق، فتشتري خيراً منها؟

- ليس عندي أي ناقة، يا هذا.

فسأل:

- ولماذا؟ هل أنت دعيّ أو لحيق بعشيرتك؟

وهممت بالجواب، ولكن ابنتي الصغيرة سبقتني إلى القول:

- بابا معلّم.

قطّة جدتي

ركضتُ إلى البيت، والدم ينزف من ظاهر يدي، ارتميت في حضن جدتي، وأنا أقول لها:

- انظري، كيف خرمشت القطة يدي.

تمسح الجرح بمنديلها، وهي تقول:

- هذا طبيعي يا ولدي، لا بد أن تخرمش يدك، لأنها قطة سائبة، هي قطة شارع وزقاق.

وأسألها:

- ولماذا لا تخرمش قطتك مرمر يدي، وأنا ألاعبها وأشد شعرها، وأعرك أذنها؟

وتردّ:

- ألا تراها؟ أضعها أمام الكناري، تقعد تتأمله ساعات وساعات، لا ترِفُّ لها عين، ولا تتلمظ، ولا تفكر في الهجوم عليه، ما رأيتها قط طاردت فأراً أو اصطادت عصفوراً، ربيتها على الحليب، والحليب وحده، هي من تربيتي، تربيتي أنا.

- وما الفرق يا جدتي؟ هذه قطة وتلك قطة؟

وتردّ:

-لا يا ولدي، ثمة فرق، ثمة فرق كبير.

بالإجماع

إنا لنرى الرجل فيعجبنا، حتى إذا علمنا أنه موظف نزل من أعيننا.

نظافة

جارتي تُعنى بالنظافة، بل هي مهووسة بها، دارها نظيفة جداً، حتى القمامة لا توجد في دارها قمامة، قمامتها، كل قمامتها تضعها في سطل، وتضع السطل خارج الدار، أمام داري.

نتائج مختلفة

أول عملها في مخبر التحليل كادت تجن.

هذه تفرح أشد الفرح لأن نتيجة التحليل أكّدت لها أنها حامل، وتمنحها أعطية تفوق راتب يومها. وأخرى تغضب وتخرج مستاءة، لأنها عرفت أنها حامل، وما تلبث حتى ترجع لتسألها: "لعلك أخطأت، فأعطيتني نتيجة تحليل سيدة أخرى"؟ وثالثة تكتئب لأنها غير حامل، وتخرج تلفّها غمامة من حزن. ورابعة تفرح لأن نتيجة التحليل سلبية، فهي غير حامل.

بعد أيام لم تعد تبالي، ثم أخذت تضحك في سرّها، وتسخر من النتائج كلها.

الناس

- كيف أنت والناس، يا ولدي؟

- كلهم أصدقائي، يا جدي.

- أنت إذن لا تقدر على تميز عدوك من صديقك.

- ليس لي عدو، يا جدي.

- إذن ليس لك رأي ولا قول ولا فعل.

دعـاء

أسأل الله تعالى إذا حانت منيّتي أن تكون في أول الشـهر، بعد قبضي راتبي، حتى يتمكن أهلي من دفع نفقات دفني.

تاج

إلى محمد أبو رمضان

التاج المرمري المرصع بأوراق الغار، كان بالأمس على قمة عمودٍ مرمري شاهق يتوّجه وحده.

ولقد نزل اليوم، ليتوّج الأرض كلها.

مائدة

حول مائدة الحوار طال بنا الحديث، وامتدّ وامتدّ، واشتدّ بنا الخلاف واحتدّ، وصار إلى جدال ومماحكة وخصام، بل تحوّل إلى هوًى وتعصُّب، كلٌّ منا يعتقد أنه هو وحده على حق، وأنَّ الآخرين جميعاً على خطأ وجهل وباطل.

ثم نهضنا إلى مائدة أخرى، فتوحّدْنا، وانتهى كل شيء، فقد ضمّنا معاً الطعام.

الجنة

لا تحزن يا ولدي، لقد مات أبوك، لا أقول لك إنه سافر، وسيعود قريباً. بل أقول: لقد مات، وأنت رأيتهم وهم يوارونه التراب، ولكن لا تحزن. الله هو الذي خلقنا، وهذه الحياة مؤقتة، وحين نموت فإليه نرجع، فيدخلنا جنته، وأبوك رجل صالح، وهو الآن في الجنة، وأنت ستكون مثله رجلاً صالحاً. ولكنا سوف نموت، أنا وأنت، وكل الناس، والصالحون مثل أبيك سيدخلون الجنة، برحمة الله تعالى ورضاه وعفوه، ولذلك لا تحزن، لأننا سنجتمع بأبيك في الجنة، وهناك سنبقى أبداً.

هذا ما قالته لي أمي، وأنا في العاشرة، يوم مات أبي، وأذكره إلى اليوم، وأنا أنظر إلى أولادي.

تحوّل

أعرفه منذ أن عملت في المديرية، منذ أكثر من عشرين عاماً، هو أقدم موظف في المديرية، كل يوم أزوره في مكتبه، أو يزورني، فنحتسي القهوة معاً، في ساعة الاستراحة.

هو مثال للصدق والأمانة والجد والثقة والتفاؤل.

اليوم، دخلت عليه، فإذا هو مطرق الرأس، سألته عما به فأجاب:

- الراتب ما عاد يكفي.

- هذا أمر نعرفه.

فأضاف:

- بدأت أفكر في السرقة.

الصوت

في حديقة الحيوان أسرعت إلى الطاووس أتأمله:

كنت قد رأيت من قبل صوراً له كثيرة، فأعجبت به، ورحت أبحث عن صور أخرى له، حتى صار اقتناء صوره إحدى هواياتي. ثم علمت أنه ملك الطيور، فقلت: إنه من غير شك جدير بذلك.

والآن أدهشني جماله الحي، أذهلني قوس ذيله الناهض كالتاج، وجيده الأزرق يشع ويلتمع، والتُّوَيْج الصغير يزهو فوق رأسه المختال.

لقد ازداد إعجابي.

ثم فتح منقاره، وصاح، فررتُ راكضاً عنه، وقد امتلأتُ ألماً وخيبة.

أهمّ شيء

تقدَّمتُ إليه بقصة، وأنا طالب في المرحلة الإعدادية، هو أستاذي، مدرس اللغة العربية، بعد يومين ردّها إليّ، سألته رأيه، فأجاب:

- عندك خطأ نحوي واحد.

سألته:

- أي شيء آخر؟

فأجاب:

- هذا أهم شيء.

*

ما أزال إلى اليوم أجلُّه، فهو أستاذي.

من وراء

على الرصيف الآمن معاً يسيران، يده في يدها، يقضمان معاً
اللوز الأخضر، ومن حولهما الربيع يغني لهما.
على الرصيف الآمن معاً يسيران.
*
وعليهما، من وراء، تنقضّ سيارة.

هو .. أنا

- لا تكن مثله، ابن خالتك، عنيد، كذاب، كسول، بليد، غير مهذّب، أمه غير راضية عنه، أبوه غير راضٍ عنه، لا تكن مثله.

هكذا كانت أمي دائماً توصيني.

واليوم أصبح ابن خالتي الرجل الغنيّ الكبير المشهور، القادر على القول والفعل، صاحب الجاه والمكانة.

*

ولقد أخذت بوصية أمي.

ما تـزال

أميل عليها، تدنو شفتاي من شفتيها، أحسّ دفئها، أشم عبق أنفاسها.

وأستيقظ.

*

أجمل قبلة كانت، وما تزال.

حوار

- أبي، أرجو أن تعطيني مئة وخمسين ليرة.

- ولماذا؟ يا ولدي.

- الأستاذ طلب منا شراء رواية لقراءتها وتلخيصها.

- ولماذا نخسر مئة وخمسين ليرة ثمن رواية، تقرؤها اليوم، وترميها غداً، ونحن دفعنا أمس أربعين ألف ليرة ثمن الطبق الفضائي، وهو كل يوم يعطينا ألف رواية ورواية؟

- ولكن يا أبي، هذه الرواية مطبوعة في كتاب، وعلينا أن نقرأها، لنمتلك اللغة والتعبير، هكذا قال لنا الأستاذ.

- لا، لا، هذا أستاذ متخلّف، قل له: "انتهى عصر الكتاب، نحن في عصر الأطباق الفضائية".

تفاحة

حُمْرةٌ كالشفق تأتلق، وتَكَوُّرٌ كالدنيا عندما ترضى، لا أشهى ولا أحلى، ووهدة لطيفة الانحناءات، يندفع منها عود أخضر يافع، كالطفولة الناعمة، وظل هادئ وأشذاء تملأ الأرجاء.

وفي القلب منها تنغرس سكين حادة، تفلقها، تبدّد قشرتها، تمزّقها، وتقسمها نصفين، تلغي تكورها، تبدِّدها، ثم تتلوها شوكة ذات رؤوس ثلاثة.

*

ما كان أحراها بشفة وفم.

الحمل

عدتُ إلى البيت حوالي الواحدة بعد منتصف الليل، حاملاً صندوق حلوى، فتحت الباب بهدوء، ودخلت، وإذا زوجتي في السرير، أحسست أنها غير نائمة، قلت لها:

- هيا، حبيبتي، انهضي، انظري ماذا أحضرت لك.

وقفزت من السرير، تناولت صندوق الحلوى، وأخذت تصيح بالأولاد، فقلت لها:

- لا، لا توقظيهم.

ردّت:

- لا، بل سأوقظهم.

وهبّ الأولاد، أسرعوا إلى صندوق الحلوى، وأخذوا يتناهبون ما فيه، ولم يسألني أحد أين كنت؟ ولماذا تأخرت.

ليلة أمس فقط رجعت إلى البيت حوالي الحادية عشرة، وإذا زوجتي تعاتبني، والأولاد يضجون من حولي، وهم يسألون جميعاً:

- لماذا تأخرت؟ أين كنت؟ كيف تتركنا وتخرج، ونبقى حبيسي البيت؟

ليلة أمس لم أكن أحمل لهم معي شيئاً.

مشاعر

- ١ -

اقترب مني أحد المدعوين، وأنا وراء المغسلة، والصابون على يدي وفمي، غمغم لي، وهو ما يزال يمضغ الطعام، وقد نهض من أمام المائدة للتو، قال:

- هل تسمّي هذا طعاماً؟ ما هذا البخل؟ هذا ليس بخلاً، هذا شحّ، من الأفضل لو أنه ما أقام مأدبة، وما دعا أحداً.

- ٢ -

قال لي صديقي، والمصعد يهبط بنا، بعد خروجنا من الوليمة:

- هذا ليس بكرم، هذا هدر وتبذير، لم أر في حياتي مثل هذا من قبل، وبصراحة، هذا إهانة للمدعوين، ومسخ لهم، ومحاولة لإظهار القوة والعظمة والغنى.

- ٣ -

في صباح اليوم التالي التقاني صديقي صاحب الدعوة، فسألني رأيي في الدعوة، فأجبته:

- مقبولة.

فردّ صائحاً:

- مقبولة؟ مقبولة فقط؟ قل بهرت عيون الناس؟ قل قلعت عيونهم.

احترام

اقترب مني النادل، حيَّاني بتواضع زائد، وهو ينحني، بدّل الصحن، بدّل الكأس، أسرع بإحضار ما طلبت، أخذ يحوم حولي:

- هل من طلب آخر، هل من خدمة؟ ماذا تأمر؟ أي شيء تريد؟

أحضر لي فنجان قهوة، حين أخرجت سيكارة من العلبة، أسرع فأخرج قداحة من جيبه، أشعل لي السيكارة.

لدى خروج من المطعم، أسرع إليّ:

- أرجو أن يكون الطعام قد أعجبك، أرجو أن تكون مسروراً بالخدمة.

- أشكرك من أعماق قلبي.

ومددت إليه يدي أصافحه، وأنا أقول:

- الحقيقة أنت آنستني كثيراً، لم أشعر بالغربة أبداً، أشعرتني كأنني في بيتي.

ثم سألته عن اسمه، فقال:

- أنا عماد.

- وأنا إياد.

ثم قبّلته في الوجنتين، وأنا أقول له:

- أنت أخ حقيقي، وطوال وجودي هنا في العاصمة، لن أتناول وجباتي إلا في هذا المطعم.

في ظهيرة اليوم التالي، قصدت إلى المطعم نفسه، بحثت عنه، رأيته يحوم حول أحد الزبائن.

التفت إليه، أشرت إليه، ناديته، همست له:

- عماد.

ولكنه كان دائماً يوليني ظهره.

كانت تلك أول مرة أزور فيها العاصمة، وأدخل المطعم، وهي قبيل تخرجي في الجامعة.

طائر

من سماء زرقاء بعيدة صافية، كعيني طفل، يهبط طائر رشيق كنسمة، يعبر أمام شمس ذهبية صاعدة، يجتاز جبالاً مثل صدر ناهد، يحلق فوق حقل حنطة ممتد كشعر طفلة شقراء، يدوّم حول كوخ دافئ كصدر الأم، يرف فوق غنمات بيض تسرح، يدنو من نهر يتدفق كالأجيال، يحط قرب جسر يقنطر كالأحلام، يقترب من الماء الأزرق الصافي، يحسو قطرة.

تتحرك بالقرب منه شوكة واخزة، تسعى إليه أفعى جائعة، يهم به ثعلب ماكر، يطلق عليه النار صائد مراوغ.

حفلة

- ألو، نعم؟
- صباح الخير أبو عمر
- أهلاً، بالأخ والحبيب أبو جميل
- من أين جئت بالأخ والحبيب؟ ونحن طول عمرنا أعداء.
- نحن أعداء في المهنة، في السوق، في التجارة، ولكن أنت أخ وحبيب، على الهاتف، الآن، على الأقل.
- يبدو أن حفلة أمس علمتك الكثير.
- دائماً أنا أتعلم.
- قل، بالله عليك، من أين جئت بمصروف تلك الحفلة، وأنت على وشك الإفلاس؟ هل بعت آلتين من آلات النسيج في معملك؟
- وهل تريدني أن أزوج ولدي من غير أن أقيم له مثل تلك الحفلة.
- لم تجبني على سؤالي، معملك كان واقفاً عن العمل.

- والآن بدأ يعمل، تعال انظر، الخيطان في المعمل تلال تلال، ورصيدي في البنك لا يُقدَّر.

- وكيف جاءك الرزق؟

- بفضل تلك الحفلة.

- لا أصدّق؟

- لما رأى التجار أمثالك تلك الحفلة اطمأنوا إلى وضعي المالي، وفي صباح اليوم التالي بدأت الأرزاق تنهال عليّ.

- ولكن، ما أزال في حيرة، مصروف مثل تلك الحفلة، كيف جاءك؟

- تاجر أخ وحبيب مثلك، غطّى مصروف الحفلة كلها.

- هكذا، ولوجه الله؟

- بل دخل بالمبلغ شريكاً في الصفقة، وله اليوم نسبة من أرباح المصنع، وقد عاد إلى العمل.

السوق

فتح باب المرسم وخرج إلى الحياة.

يد ترتعش، وجبين مضطرب، وعينان كفراشة.

في صخب السوق حطت الخطا التائهة، وأمام محل وقف الجبين يتأمل.

وتلاشى نداء الباعة، غاب تزاحم الأقدام والأكتاف، فرغ الكون كله، إلا من تفاحة حمراء، بدأت تملؤه كله، شيئاً فشيئاً.

حمراء مكورة، كفكرة مشتعلة، كقبلة مفاجئة، مثل نسر- أبدي، كالأرض، كالكون، تحلق، تعظم، تكبر، ثم تدنو، فتصغر وتصغر، تدنو أكثر، ينشق الصدر، وتحل في القلب.

- ابعد من أمام المحل.

هكذا ينفجر في وجهه صوت.

يهمس شاكياً:

- أنت شوّهت أجمل لوحة.

ويأتيه الردّ من قبضة مكورة، غليظة قذرة متورمة، فيحس بلطخة دهان أسود تملأ الكون كله.

العودة

أصفق الباب ورائي، وأخرج، أغادر المنزل، أهبط على الدرج.

تعبت، مللت، كرهت كل شيء، البيت، الزوجة، الأولاد، لستُ سوى آلة، لست سوى خادم، لا أجد ساعة من راحة.

*

بعد ساعة أرجع إلى البيت حاملاً طبق حلوى.

المطر.. والسكائر

المطر ينهمر غزيراً، والنوافذ مغلقة، وفي المقعد أمامي عامل عجوز متعب، أسند رأسه إلى نافذة السيارة، وأغمض عينيه في شبه إغفاءة.

في جيب سترته الخارجي علبة تبغ، يده ما تفتأ تمتد إليها، يتلمس فتحة العلبة بأصابعه، يتحسّس السيكارة، تهمّ الأصابع بسحب سيكارة، ثم ترجع الأصابع في انكسار، لتلمس شعر الذقن التي لم تحلق ربما منذ أيام.

وتقف السيارة، يدخل شاب وسيم، يعبق الفضاء بشذى عطر شبابي، يقعد قبالتي إلى جانب العامل العجوز، أرى بين يديه كتاباً جامعياً، أسعد إذ أرى اسمي على غلاف الكتاب، هو من طلابي، يحدّق بي، ولا يرفّ له جفن، هو لا يعرفني، يبدو أنه لا يحضر محاضراتي.

المطر ينهمر في الخارج غزيراً، يسح على الزجاج، وأنا أتأمله بسرور، ولكن ألمح صورة الشاب المنعكسة على الزجاج، وفي فمه سيكارة.

ألتفت إليه، وإذا هو يقول للعجوز وعيناه على علبة التبغ التي في جيب سترته.

- أعطني قداحتك.

العجوز يفتح عينيه المحمرّتين من تعب، يحدّق فيه كمن صحا مِن حلم مزعج، ثم يقول:

- أنا من أول الخط ركبت السيارة، من ساعة أو أكثر، وما أشعلت سيكارة، وأنت الآن دخلت السيارة، وبعد دقيقة تصل إلى آخر الخط، ما بقي عندك صبر؟!

الشاب يرفع السيكارة من بين شفتيه، يرسل زفرة تنم عن ضجره، يغمغم، ثم يتوجه إلى السائق قائلاً:

- أخي، أعطني شعلة من عندك.

العجوز يصيح بالسائق:

- أخي، نزّلني عندك، ما عندت أنتظر حتى آخر الخط، الله يرضى عليك، نزّلني.

وتقف السيارة، ينزل العجوز، أنزل في إثره.

على الرصيف، تحت المطر المنهمر، يقف العجوز، يستلّ علبة التبغ من جيبه، يقطّعها بين يديه الاثنتين قطعاً قطعاً، يرميها على الرصيف، يدوسها بقدمه، وهو يقول بصوت عال:

- ما شاء الله، واضح: هو طالب جامعة، ماذا أقول أنا الرجل الأمّي؟ تحرم عليّ بعد اليوم السيكارة.

الحرف

السوق طويلة، والغبار كثيف، والقمامة في كل مكان، والزحام خانق، والزاد قليل، والجسم واهن، والوقت قصير.

ولكني واثق بأني سأجتاز كل شيء، وأبلغ الأفق، فأعلق الحرف.

لأنَّكِ معي.

الالتفات

التفتَ إلى ما وراء، فتألق وجهها بين الحاضرين، كان يتوقع حضورها، لا شكَّ في أنها قرأت الإعلان عن الأمسية الشعرية، فجاءت لأجله.

واعتلى المنبر، إليها كان يلقي القصيدة، يستوحي وجهها، ينشدها، يغني لها، وفي القلب تنبض ذكريات السنين.

زميلة كانت، وكان ينشدها الشعر في مقصف الكلية، وهو يعلم أنها ستسافر ذات يوم، سترجع إلى بلدتها، ستتخلى عنه.

ولكنه كان على يقين من أنه سيلتقيها ذات يوم، وينشدها شعره، وها قد حان اللقاء.

بعد نزوله من المنبر ستسرع إليه، ستشد على يديه، تدرك من غير شك أنه كان يعنيها هي، تدرك أنها ما تزال تعيش في نبضه.

ويهبط من فوق المنبر، يلتف من حوله الأصدقاء والصحب والمعجبون، يصافحونه، يحيونه، وهو يبحث عن وجهها.

يغادر القاعة، وهو يبحث في وجوه المغادرين، يغادر البهو، يغادر المبنى، ولا أحد، لا أحد.

ويـرن جـرس الهـاتف في غرفتـه بالفنـدق، ويسرـع، يرفـع السماعة، هي، هي من غير شك، وتكبر الخيبة.

هل كان وجهها وهماً؟ هل كان حلماً؟ ولكن، لا، لقد جاءت، رآها، هي هي نفسها، لأجلها أنشد الشعر، غناه.

*

في الصباح، تغـادر بـه الحـافلة الـبلدة، ويلتفـت، مـن وراء الزجاج ينظر في الوجوه.

على الرصيف، هنالك، والحافلة تمضي به، وبين الوجوه، يرى وجهها.

سؤال

رن جرس الهاتف، فرفع السماعة

- نعم؟
- صباح الخير.
- صباح الخير.
- كيف الصحة؟
- الحمد لله.
- كيف العمل؟
- بخير.
- وكيف صحة الوالدة؟
- أفضل.
- كيف صحة الأولاد؟
- كلهم بخير.
- ودراستهم؟
- بخير.
- وكيف صحتك أنت؟

- بخير.

- والعمل؟

- الحمد لله.

- مرحباً بك.

- مرحبا.

- يبدو أنك لم تعرفني؟

- للأسف.

- الحق معك، فهذه أول مرة أُكلمك.

- لا بأس.

- لن أطيل عليك، فقط أريد أن أسألك.

- تفضّل.

- هل أخوك محمد في المحل عندك؟

- نعم.

- أنا صديقه، أريد أن أسلّم عليه.

يناول سماعة الهاتف لأخيه، ثم يخرج.

لا جديد

بعد ثلاثة أيام أمضاها تحت العناية المشددة، كان أول ما طلبه هو الصحافة، وامتلأ سريره بالصحف، أخذ يقلبها، وينظر فيها، ظنَّ أنَّ العالم قد تغيَّر، وأنَّ أشياء جديدة قد وقعت، ولم يطّلع عليها، ولكن تبيّن له أنَّ العالم ما يزال يسير كما هو، ولا شيء قد جدّ.

رحلة

وجدت نفسي في الحافلة إلى جوارها، فرحت بها، كالطفل، ولا سيما حين حيتني مرحبة، وبدأت تحادثني، ثم التصقت بها، والحافلة تسير، تبادلنا الزاد والحديث والشذى، استسلمت لدفئها، أحسست بخدر لذيذ، ولبرهة، غفوت، مثل شيخ دهمه النعاس.

وصحوت على صوت ضحكتها، وإذا هي تحادث شاباً في المقعد المجاور لها، بل رأيتها تبادله الزاد والحلوى، وقبل أن أعود إلى محادثتها، توقفت الحافلة، وسمعت السائق يهتف باسمي، ينبهني معلناً انتهاء رحلتي.

ونهضت، أحسست بشوق عارم إليها، كأني ما قعدت لصقها، شعرت أني مرغماً أغادرها، وأنا أمرّ بها، سألتها عن اسمها، فأجابت:

- دنيا.

تغيُّر طارئ

في الأيام القليلة الماضية، وجدت أني بدأت أسأل الأولاد عن دراستهم، وأراجع معهم بعض الواجبات.

ووجدت زوجتي تسألني عن عملي في الشركة، وأسألها عن دوامها في الوظيفة، وعن أمور البيت.

ووجدتها تدعوني إلى الخروج في زيارة بعض الأقارب، ممن لم تكن تزورهم.

كما وجدت أني قرأت عدة كتب، ووجدت مجلات جديدة في غرفة الجلوس، بعضها اشترتها زوجتي، وبعضها اشتراها الأولاد.

أدهشني ذلك التغير، لم أعرف السرّ.

*

بعد يومين قرع الباب، وجاء المصلح يحمل إلينا التلفزيون.

هتافات

لغط وضجيج وصراخ وهتافات.

رميت اللحاف، قفزت من السرير مدهوشاً، أسرعت إلى باب الشرفة، فتحته وخرجت.

أكثر نزلاء الفندق خرجوا مثلي إلى شرفاتهم.

حشد كبير يظهر عند نهاية الشارع، الحشد يتقدم حثيثاً، فوقه رايات كثيرة مرفوعة، وأصوات الهتافات العالية تدنو شيئاً فشيئاً.

طوال الأيام الخمسة الماضية كنت أتجول في الشوارع، كل شيء على خير ما يرام، الأسعار معقولة والسلع متوافرة، وطوال الأمسيات الخمس الماضية كنت أتابع الأخبار في التلفزيون، وأتابع الصحف المحلية، لم ألمس في كل ما رأيت أو قرأت أو سمعت شيئاً ما يدعو إلى قيام مظاهرة. على كل حال، جميل جداً أن ترى شيئاً مثل هذا في إحدى دول العالم الثالث.

ارتديت ثيابي بسرعة، حملت مصورتي، وهي دائماً جاهزة، وقبل مغادرة الحجرة رجعت إلى باب الشرفة لأغلقه.

كانت المظاهرة قد اقتربت، وبدأت الهتافات تتضح قليلاً، خرجت إلى الشرفة، حدقت في الرايات المرفوعة، حدقت أكثر، أصغيت إلى الهتافات.

كان الحشد مجموعة من الشباب المتحمسين لفريق كرة قدم.

زوجتي

وأنا أصعد الدرج
إلى الطبيب
أتوكأ عليكِ
الآن أوقن
أن الأبقى والأدفأ والأوفى
يدكِ وحدها.

ولدي، إن مِتُّ فلا تحزن.

لا تقل: اغتالته يد الموت، ولا تقل: خطفه منا القدر، ولا تقل: فجعنا به الزمان، ولا تقل: مات ولم يُمَتَّع بعمره، ولا تقل: مات قبل الأوان، ولا تقل: لو عاش عاماً آخر أو عامين، ولا تقل: ليتني فديته بنفسي، ولا تقل: تأخرت في نقله إلى المستشفى، ولا تقل: لم يفهم الطبيب أو أخطأ، ولا تقل: قتلتْه علته، ولا تقل: كان السبب كذا وكذا، ولا تقل: لن أنساه، ولا تقل: ولا تقل: ولا تقل.

ولدي، إن مِتُّ فهذا يعني أنه قد حانت منيتي، وأنه لا دافع لها، وأنه وافاني الأجل، وانتهى العمر، وانقطع الرزق، وبطل العمل، وحان الوقت المحتوم.

ولدي، لم نخلق لنموت، ولكن خلقنا لنعمل، ثم لنرحل فحياتنا مؤقتة، ثم إننا هناك في رحمة الله نلتقي، ونجزى بعفوه وكرمه أجمل الجزاء.

القصة

إلى أحمد جاسم الحسين.
انتهى عمري والمداد والورق.
ولم أكتب القصة.
*
ولكن أعلم
أن ثمة من سيكتبها
من بعدي.

عند المنتهى

هُهنا، عند المنتهى
وبعد كل تلك المعاناة
وبعد ذكر ما ذكرت
تنبّهْتُ إلى أنني كنت قد نسيته
وأنني منذ البدء لم أذكره
وأنني لم أكن أسير بهداه
وليكن لي شفيعاً أني أخيراً ذكرته.
*
هو الله.

غـداً

أسمع صوت الحافلة تقف، أسرع إلى النافذة، أفتحها، أطـلّ منها، ثم أنثني إلى الداخل، أنادي:

- أمل، هيا أسرعي.

وأرجع إلى النافذة، أطل منها، أرى ابنتي أمل تخـرج راكضـة من مدخل البناء، على ظهرها حقيبتها المدرسية، وضفيرتاها الشقراوان تنوسان، تلتفت إليّ، تلوّح بيدها، ثم تصعد إلى الحافلة، وتمضي بها.

أنظر إلى السماء، أرى آفاقاً واسعة.

أرجع إلى الداخـل، أقعـد وراء الطـاولة، أسـتلّ ورقـة أبـدأ بالكتابة.

تدخل عليّ زوجتي، تسألني:

- ماذا؟ هل هناك قصة جديدة؟

وأرد:

- بل قولي: مجموعة جديدة.

وتسأل:

- لمن ستهديها، هذه المرة؟

- إلى ابنتي أمل
وتمضي نحو النافذة، لتغلقها، فأقول لها:
- لا، أرجوك، اتركي النافذة مفتوحة.

كتبت قصص هذه المجموعة
بين عامي ١٩٩٧- ١٩٩٨

المحتوى

العنوان	رقم الصفحة
كلمات	٥
صديقتي	٦
حديث الناعورة	٧
في الداخل	٨
حسد	٩
كيس السكاكر	١٠
موعظة	١١
على وشك السفر	١٣
مجلدات	١٤
شعور مختلف	١٥
الصديق	١٦
السفر الحق	١٧
الخلاص	١٨
من هي	١٩

للجميع	٢٠
بعض الدعاء	٢١
تكرار	٢٢
الضمير	٢٣
خواء	٢٥
لوحة	٢٦
مثلي	٢٧
فيض من السرور	٢٨
صداقة	٢٩
صانع الأحداث	٣٠
الزبون الأول	٢٣
اختناق	٣٤
الزوار	٣٥
الليرة والصحن	٣٦
السلام	٣٨
لا يعرف	٣٩
المقص	٤٠

الهدية	٤١
زيارة	٤٢
محاولة	٤٤
الدرجات	٤٥
عرفته	٤٦
عاشا معا	٤٧
هدية	٤٨
دعوة مفاجئة	٤٩
تعريف	٥١
لا شيء	٥٣
أصداء صوت	٥٤
الشقاء	٥٥
سيكارة	٥٦
بعد الخمسين	٥٧
إقبال شديد	٥٨
لص	٥٩
غياب	٦٠

كراهية	٦٢
صباح مختلف	٦٣
لا طعم لها	٦٥
سؤال محرج	٦٦
أسباب كثيرة	٦٨
من حسن الحظ	٦٩
السكوت	٧٠
يدها	٧١
وردة	٧٣
السمن والتاجر	٧٤
بطاقة	٧٦
جارة	٧٧
سؤال	٧٨
قول وقول	٨٠
شاب ناجح	٨١
هدية متواضعة	٨٣
انفجار	٨٥

اللقاء	٨٦
هل تصدق	٨٧
الشذى	٨٩
زيارة قصيرة	٩٠
الريح	٩٢
الحقيقة	٩٣
ازدحام	٩٤
حوار	٩٥
جهل	٩٧
هل يصدقني	٩٨
مثال	٩٩
ليس ولدي	١٠٠
الخطيئة	١٠٢
قطة جدتي	١٠٤
بالإجماع	١٠٦
نظافة	١٠٧
نتائج مختلفة	١٠٨

الناس	١٠٩
دعاء	١١٠
تاج	١١١
مائدة	١١٢
الجنة	١١٣
تحوُّل	١١٤
الصوت	١١٥
أهم شيء	١١٦
من وراء	١١٧
هو وأنا	١١٨
ما تزال	١١٩
حوار	١٢٠
تفاحة	١٢١
الحمل	١٢٢
مشاعر	١٢٣
احترام	١٢٥
طائر	١٢٧

حفلة	١٢٨
السوق	١٣٠
العودة	١٣١
المطر والسكائر	١٣٢
الحرف	١٣٥
الالتفات	١٣٦
سؤال	١٣٨
لا جديد	١٤٠
رحلة	١٤١
تغير طارئ	١٤٢
هتافات	١٤٣
زوجتي	١٤٥
لا تحزن	١٤٦
القصة	١٤٧
عند المنتهى	١٤٨
غدا	١٤٩
المحتوى	١٥١